الأدب النهضوي الجزائري وبناء القيم –جهود البشير الإبراهيمي أنموذجًا–

Renaissance Literature and Building Values — the Efforts of Mohamed El Bachir El Ibrahimi as a Model

ط.د/ أصالة القوبي * / *Assala ELGAOUBI*

جامعة باتنة 1–

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة.

assala.elgaoubi@univ-batna.dz

تاريخ الإرسال:2023/05/20 تاريخ القبول: 13/ 06/ 2023 تاريخ النشر: 2023/06/19

ملخص:

الفنُّ عنصرٌ أساسٌ في بناء القيم، له تمظهرات عدّة من أبرزها الإبداع الأدبي، ولقد خبر المشهدُ الأدبي الحديث في الجزائرِ حركةً إصلاحية نهضوية حمل لواءها أدباء جمعية العلماء المسلمين؛ في محاولة لمواكبة صيرورات الحياة وتحوّلاتها السِّياسيّة والسوسيو ثقافية، وتحديث العقل بالنهضة المعرفية التي تحقّقها مقاصد الكتابة عندهم. وتتّجه هذه الورقة البحثية نحو أحد أهمّ أقطاب الجمعيّة، "محمد البشير الإبراهيمي" بغية الإجابة عن الأسئلة التالية: إلى أيِّ مدى جسّدت النصوص الإبداعية للإبراهيمي مشروعه الإصلاحي؟ وما تأثيرها في تكوين الوعيِ لدى الفردِ الجزائريِّ وفي تنمية قدرته على استشكال قضية العلاقة مع المرجعيات؟ ما القيم التي استند إليها في عملية إرجاع الفروع إلى الأصول؟

الكلمات المفتاحية: الأدب الجزائري الحديث؛ المشروع النهضوي؛ جمعية العلماء المسلمين؛ الإصلاح؛ البشير الإبراهيمي.

Abstract:

Art is an essential part of building values; it is manifested in many different ways, most notable of which is literary innovation. Algerian literature experienced a reformist renaissance movement that saw in its vanguard the literary figures of the Association of Algerian Muslim Ulema. This movement came as an attempt to keep up with the necessities of life and its many political and socio-cultural changes. It sought to enlighten the mind through a renaissance of knowledge that is achieved through the very purpose of writing for them. This research paper deals with one of the pillars of the Association, and that is Mohamed El Bachir El Ibrahimi, in order to answer the following questions: To what extend did the texts of El Ibrahimi manage to express the Association's

*المؤلف المرسل

renaissance-like project? And what is its effect on structuring awareness among Algerian individuals and nurturing in them the capacity to grasp the concept of the deeply-tied relationship with the references of said renaissance? Furthermore, what are the values he relied upon in the process of understanding branching concepts through their foundational principles?

Key- words: Modern Algerian Literature, The Renaissance Project, the Association of Algerian Muslim Ulema, El Bachir El Ibrahimi.

1. مقدّمة:

يواجهُ الإنسان العالم بحيثيّاته وكلّ ما يجري به مستندًا على العقل وعمليَّة التفكير ليُحدّد علاقته مع المرجعيّات الأصليَّة له ويتمكّن من الإجابة عن أسئلة الوجود الكبرى، وحينما نوجه منظارنا نحو الأدب الجزائريّ الحديث نجدُ ما يدعمُ قولنا، إذ كان الأدب في فترة النَّهضة أداةً فعَّالةً ووسيلةً ذات ثقلٍ وتأثيرٍ؛ خاصّة في محاولة إصلاح العقل الجزائريّ الذي ارتبكت مساراته وعلاقته مع مرجعيّاته جرّاء ما عاصره خلال العهد العثمانيِّ ومن ثمّ فترة الاحتلال الفرنسيِّ. ولجأ الأدباء إلى الحفر والتّنقيب عن الأصول الأولى ثمّ محاولة الوصولِ لمعرفةِ السرّ والعمل به في إنتاج فكر أصيل جزائريٍّ خالصٍ.

فالأدب لم يعد مجرد تقنيات فنيّة أو سردية ولا أوزان وقوافي وصور، فقد اختلفت طريقة التعامل معه وطريقة التفكير فيه أثناء حركة النهضة الأدبية، كما أصبح بإمكاننا الاعتماد عليه في عدّة مهام حساسة من بينها بناء الرأي والذائقة وتوجيه الفكر وإصلاح نمط التفكير والنضال الثقافي وبناء الوعي.

2. آفاق الفكر النهضوي الإصلاحي:

دراسة النتاج الأدبي الذي حمل لوائه أعلام جمعية العلماء المسلمين تستلزم معرفة أنّ النصوص في عملية تواصل مستمر مع السياقات الثقافية المنتجة لها وفهم نظامها الفكري يستوجب معرفة الظروف التي شهدت ميلاد هذا الفكر، ثم دراسة العناصر الخفية المكونة لهذا المنجز الأدبي الذي يحتفي بالنص القديم لإعادة بناء وإحياء العلاقة مع مرجعيات الأدب العربي القديم وفلسفاته ورؤاه التي غالبًا ما تخدم الدين الإسلاميَّ، هذا الذي يفسّر سعي جمعية العلماء المسلمين إلى قراءة مستحدثة للتاريخ وبناء آني لذاتٍ معاصرة متحررة من الزيف والصراع الهوياتي، ومن الغربة اللغوية التي فرضها الاحتلال، كما سعت

إلى إنقاذ المثقف الجزائري من المأزق الذي وقع فيه نتيجة لاختراق النسيج الثقافي الجزائري وافتقاد الأمان السيكولوجي والعيش تحت الوصاية الدينية، حيث إنّ «الوعي بالحقيقة أو الفطرة الأصلية الأصيلة للإنسان، هو منطلق نجاح كل نهضة بشرية أصيلة وفعالة ومطردة، وكل نقصٍ أو خطأ أو فهم لهذه الحقيقة تجعل نهضة الإنسان غير متيسرة، بل ومستحيلة، لأنها نهضة تأسست على غير أساس، ومن ثم ستتحرك بعيدًا عن حقيقة الإنسان»[1] وهذا مخالف للسنن الكونية التي سنها الخالق وألفها المخلوق منذ الأزل.

3. آفاق الفكر الإبراهيمي:

لطالما عُرف عن الشيخ "محمد البشير الإبراهيمي" (1889-1965م) حبه الشديد للعلم بطلبه ونشره وسيرته النضالية ضد الإبادة المعنوية للشعب الجزائري إيمانًا بضرورة وعي الأديب بما يتوجب عليه بوصفه مناضلا بالكلمة، إذ يقول:«والأديب إنما يكون أديبًا بحق حين يكون أمين القلم صادق البيان ينقل إحساسه إلى قارئه في عمقٍ وصدقٍ، فلغة الأدب وحدها هي الترجمان الأمين لعواطف هذه الشعوب، واللسان المبين الذي يعرض خلجاتها ويفصح عن آمالها وأحلامها»[2] كما يقول أيضًا: «الأديب في ميدان الفكر كالقائد بين يدي المعركة يوجهها بخبرته، ويقودها بمواجهته ومعرفته، إلى النصر المبين»[3] وفي هذا إشارة صريحةٌ للوعيٍ الذي امتلكه "الإبراهيمي" فيما يخص مكانة الأدب وخطورةٍ ما يمرر ضمنيًا من خلاله، كذلك نتبين قدرته على تحقيق نقلةٍ معرفيةٍ ووثبة نهضوية تزيح ترسبات دهر من الجمود والركود الفكريين. كرّس "الإبراهيمي" حياته لخدمة العلم والأدب ولإنقاذ العقل الجزائري من براثن الوهم والخداع ولإخراج كلّ الطّاقات وتوجيهها نحو العطاء الأدبي الذي ركن بعيدًا منذ بداية الاحتلال، وخلال رحلة البحث عن كيان الفكر والأدب الجزائريين وسط هذا الزخم المعرفي الذي يحيط بالمناخ الجزائري الذي تجذبه روابط حنين إلى الشرق وروابط احتكاك مع الغرب، رحل "الإبراهيمي" إلى الشرق تأكيدًا منه على الانتماء الهوياتي والقومي للمشرق، وأيضًا ليمهد الطريق للشباب الجزائري بغية إرساله في بعثات علمية تصقل تجربته وتغذي روحه وعقله بمرجعياته الرئيسة، كما كانت المساعدة المادية من طرف الدول العربية إحدى مهامه خلال رحلته من أجل إمداد الجمعية بما يلزمها في عملية بناء المدارس ونشر العلم والتنقل وغير ذلك مما يسهل عملها، فيوجّه خطابه إلى الشعوب والحكومات العربية، ومن

أمثلة ذلك قوله: «يا أبناء العمومةِ: إن هذه الشعوب الثائرة في تونس والجزائر ومراكش، هم إخوانكم، وأجزاءٌ من جسمكم، ونصفُ عددكم والقطع الخصيبة من وطنكم، والسهام الرابحة من رأس مالكم، وقد ابتلاهم الله باستعمار منهومٍ، لم يترك لهم درهمًا في جيبٍ، ولا ريشةً في جناحٍ، ولا عَقْلًا في دماغٍ، فإذا ثاروا اليوم فإنما يثورون لشرفٍ هو شرفكم، وكرامةٍ هي كرامتكم، فالآن وجب حقُّ الأخ على أخيه، من إسعافٍ يشد العزيمة ونجدةٍ تقوي الأمل، وإن عدوهم هو عدوكم، لم تجدوه دائما إلا في موقف الخذلان لكم»[4] يخاطب الشعوب العربية قاطبة وحكامها طلبا للمآزرة المعنوية والمادية لمواجهة العدو المشترك.

كما سعى "الإبراهيمي" حينها إلى إذاعة القضية الجزائرية ومحاولة تدويلها كي لا يتمكن الاحتلال من تحقيق آماله في الحصول على الاعتراف الدولي بفرنسة الجزائرِ.

وعملَ على إبراز الصورة الحقيقية للفكر الجزائري المستقل كي لا يترسخ في الأذهان ما يصدره المستشرقون الفرنسيون من أفكارٍ وتحليلات عن الكتب والمخطوطات الجزائرية القديمة، إذ كثّفت الحركة الاستشراقيّة جهودها وزادت من دائرة اهتماماتها إبان فترة الاحتلال. أما عن رحلته نحو الشرق الإسلامي يقول: «هذا الطور من حياتي هو الذي تفتّح فيه ذهني للأعمال العامّة، فشاركت برأي في الآراء المتعلقة بالسياسة العامة للدول العثمانية، وفي علاقة العرب بها، وفي الإصلاح العلمي بالحرم المدني»[5] وهذا الاعتراف بالجميل والامتنان للشرق يدفعنا للتأمل في سعة الفائدة التي عادت على فكره والانفتاحات في دربه العلمي من خلال هذه الرحلة المباركة، إضافةً إلى دعوته المستمرة إلى أن يلوذ الجزائري بالفرار الوجداني إلى المشرق العربي لما له من قدرة على منح الراحة النفسية والهدوء العاطفي فيقول: «داوِ الكلوم يا شرق، فما زلنا كلّما استشفينا بك نجد الراحة والعافية، ونظفر بالأدوية الشافية (...) وما زالت أفئدتنا تهوي إليك فتصافحها حرارة الإيمان، وبرد اليقين، وروح الأمان»[6] قد وجد في المشرق العربي نور المعرفة واستمرارية التاريخ ومحاربة إقفار الروح.

والعودة إلى التراث الأدبي خلال فترة النهضة أعادت «للإبداع الأدبي قوته ومكانته التي كان يحتلها قديمًا. لقد تجددت القصيدة العربية بالقياس لما كانت عليه قبل هذه الحقبة، واستمدت بعض

زخمها مما تولد عن التفاعل مع التراث الشعري القديم، برزت أسماء جديدةٌ كان لها دورٌ ريادي في إعطاءِ الإبداع الأدبي نفسًا جديدًا وروحًا مغايرة حبلى بإمكانات التطوير والإغناء»[7] وأُنيطت لهذا الإبداع مهامٌ ذات بعد سياسي واجتماعي لتطوير الوضع الحضاري للوطن، فأسهم الأدب في الدعوة إلى الثورة وتبنيها، ونجد مقالا " للإبراهيمي" بعنوان "محمد العيد"، فقال عنه ما يشهد له بأنه أول شاعرٍ رافق النهضة وسجل المراحل التي مرّت بها، وله دعوات صارخةٌ إلى تبني الثورة التحريرية الكبرى والالتفاف حولها وهذا ما يدل على شجاعته الكبيرة حيث إن ذكر الثورة آن ذاك أو الترويج لها كان جريمةً تعاقب عليها سلطات الاحتلال بأبشع العقوبات لكنه تحدّى وجازف فداءً لوطنه وقضيته.

أ) أفق اللغة العربية:

آمن الأديب الجزائريُّ أن الأحرف حياة فلكل حرفٍ وجوده الماديُّ والروحيُّ، فهو موجودٌ بالقوة في العالم ثم يخرجه المبدع ليصبح موجودًا بالفعل، الخلق مرتبطٌ بالكلمة (كن فيكون)، والموت كلمة، والحياة تمنح بكلمة وتعاش من خلال الكلمة، فالكاتب حين يحمل قلمه يرى في السلطة (سلطة الحكم، سلطة التقاليد الواهية، سلطة الأعراف المتهالكة، سلطة الخوف من الاحتلال ...) خصمًا وبؤرة شر والكتابة عنده هي التي تعبث بانتصار الخصم الوهمي غير المشروع وتبعثر أركان هذا الانتصار فيتشكل وعيٌ بالراهن وما يستوجبه من مقاومات واندفاعات.

يواصل " الإبراهيمي" مشروعه النهضويّ ومحاولاته الساعية لبناء القيم، هذه المحاولات التي لم تكن متجاهلة لما للغة العربية من أثر واضحٍ في بناء القيم الحضارية للشعب الجزائري الذي كان يعاني من سياسة فرنسا اللغوية، فاللغة العربية هي اللبنة الأولى للتفكير لدى الفرد الجزائري، والعلامةُ الفارقة التي تثبت انتماءه العربي، ويقول عنها: «إنّ هذه الأمة تعتقد _ وتموت على اعتقادها_ أن لغتها جزءٌ من كيانها السياسي والديني، وشرطٌ في بقائها، وقد التقى على الكفاح في سبيلها الدين والسياسة، فلم يختلف لهما فيها رأيٌ، ولم يفترق لهمها قصدٌ»[8] وهذا دافعٌ آخر للتمسك والتشبث بكل ما يتعلق بها خاصة وأنها مستهدفةٌ من مؤسسات الاحتلال، والمعطيات العقلية تدعم أنه لتحقيق النهضة المعرفية لا بد من الانطلاق من رفض مركزية النموذج الغربي واعتباره معياريًا، ولغته مقياس الحضارة والرّقي، والإيمان بقوة النموذج العربي وإرساء دعائمه والجهر بالفخر به، لذلك كان المتعلّم الجزائري متوجسًا من

فرنسة المدارس، مضطرب الخاطر والوجدان، حيث يشعر باغترابٍ عاطفي داخل لغةٍ لا تحتضن أحلامه ولا تؤمن بحقه في الحرية التي يحيا بها كل إنسانٍ في العالم، لغة لا تجيب عن أسئلته الأنطولوجية إجابةً مرضيةً لعقائده وفطرته وميولاته الفكرية، لأنه إذا ما فكَّر بها واعتمد على ما تعمدت الدولة الفرنسية حشوه في ذهنه وقف عند إشكالية الصراع الداخلي وأزمة الهوية بما تخلفه من تشظّي وارتباك للذات.

وفي هذا القول ما يثبت أن: «لغةُ الأمة هي ترجمان أفكارها، وخزانة أسرارها، والأمة الجزائرية ترى في اللغة العربية ــ زيادةً على ذلك القدر المشترك ــ أنها حافظة دينها، ومصلحة عقائدها، ومدونة أحكامها، وأنها صلةٌ بينها وبين ربها، تدعوه بها وتعترف، وتبوء بها فيما تقترف»[9]. واللغة الأدبية تمتلك فنيات الجمال وبناء الصورة الشعرية التي تهدف إلى تحقيق المتعة الجمالية من جهة وتوجيه هذا الجمال نحو غايات وأهداف الخطاب ومقصديات الكتابة من جهة أخرى، ولذلك يكون الأديب المسلم مطالبا «بهذه الثنائية التي يجب أن ينفتح بها أساسا على اللغة المشحونة بعوالم داخلية تكون تجارب الشاعر وخبراته قد شكلتها وغذتها بنفحات إيمانية تخرجها إخراجا إسلاميا سليما دالا على قدرة الشاعر على الإبداع وفقا لعناصر وأسس أمته الإسلامية، أو وفقا للفطرة السليمة التي فطره الله عليها»[10]

اتّسم أدب "الإبراهيمي" بالشّبه الكبير والواضح بنظيره العربي القديم، فكان أسلوبه خطابيا مرة وساخرًا مرّة أخرى، ومقالة متقنة مرّة ونصوصٌ مسجّعة مرة أخرى، كما كثُرت النبرة الإرشادية الناصحة لديه ويلاحظ القارئ الاستعمال المتكرّر للمحسنات البديعية والتوازيات الإيقاعية والمماثلة اللفظية واقتباس الكلمات والجمل والأفكار والتراكيب النحوية والبلاغية من الموروث، ومن أمثلة هذا التَّوظيف عنده : «... أعجب لدين ينتزع الشواهد على صحته من حالتي الإقبال والإدبار، وأعجب لدين يسم طباع بنيه بسمة التوحيد في حالي الوفاء والجفاء، وأعجب لدينٍ تغفل القلوب عن وعي حقائقه، وتكسل الجوارح عن أداء وظائفه، وتتجرد النفوس عن حلاه، وهي مع ذلك كله، على أشد ما عرفت من العصبية والتشيع له والاعتزاز بالنسبة إليه وإن ها هنا لسرا لم أثبته فلم أحسن التعبير عليه»[11]، تبرزُ في هذا النّص سمات أسلوبية ذات بعد دلالي من بينها تقنية التكرار لتأكيد المعنى والحرص على لفت الانتباه

إليه، كما نلاحظ نوعين من الطّباق؛ طباق موجب بين مفردتي (الإقبال/ الإدبار)، و(الوفاء/ الجفاء)، وطباقُ سلبٍ بين مفردتيْ (الدّين/ اللادين).

ويمكن أن نستدلَّ كذلك بنصوص أخرى له حين يقول:

«إنّ الحق لا يثبت بالدعوى بل بالدّليل، وإن العبرة بالمسميات لا بالأسماء وبالأفعال لا بالأقوال، ولو أنّ كل من سمّته أمة ((صالحًا)) كان صالحًا على الحقيقة (...) ولو أنّ كل من تسمى ((حسنا)) لا يأتي لمكان اسمه إلا الفعل الحسن لحلم الحسن على القبح، ولكن من وراء هذه الأسماء الجميلة أفق الواقع تتهاوى فيه هذه الأسماء وتنفلق فلا نجدُ إلاّ الحقيقة من فعل يصدق أو يكذب»[12]، نجدُ في هذا النّصِّ المقتبسِ القصيرِ طباقًا موجبًا بين (الحسن/ القبح)، و(الأفعال/ الأقوال)، و(يصدقُ/ يكذب).

ونجدُ نوعًا آخر من المحسّنات البديعية وهو الجناسُ، جناسٌ ناقصٌ بين (المسميات–الأسماء) و(حسنا –الحسن)، ونحن نعرفُ أنّ هذه المحسنات تضفي طابعًا جماليًا على النص وتصبغه بجرس موسيقيٍّ سلس.

أما السجع فقد كان «بالقياس إلى الإبراهيمي، كالأداة الشعرية للتعبير عن أحوال الألم والأسى، وأحوال العنف والغضب، وأحوال الحب والتودد جميعًا»[13]، وبهذا جاء أدب الإبراهيمي مرآةً لتحولات الحياة الثقاف وانعكاسًا لذاته ورؤاه، موظفًا في التعبير عن هذه الرؤى لغة عربية خالصةش ونظامًا رمزيًا للمتخيّل العربي القديم وتقنيات فنيَّة عربية قديمة ذات روح مستحدثة تواكب الجوهر الحضاري.

ب) أفق التعليم:

اهتمّت جمعية العلماء المسلمين بالنّظام التعليمي في الجزائر اهتمامًا خاصًا، حيث إنها لم تكن راضية عن الوضع والمستوى التعليمي لأبناء الشعب الجزائري لعدّة أسباب من بينها: تفشّي الأميّة بشكل لافت للانتباه، بداية الحركة التعليمية باللغة الفرنسيّة للجزائريين من أجل تولّي الوظائف الإدارية، واكتساب شهادات ومهارات يسيرة لمزاولة أبسط الأنشطة؛ ونجد " الإبراهيمي" يتحدث عن هذا في مواضع عدّة منها: «الأميّة _ بمعناها اللغوي العرفي_ وهو الجهل بالقراءة والكتابة، مرض فتّاك، ونقيصة

مجتاحة، ورذيلة فاضحة، وشلل وزمانة في جسم الأمة التي تبتلى بها (...) لا تفشو الأمية في أمة إلاّ أفقدتها معظم خصائص الحياة. وأكبر جناية تجنيها الأمة على الأمم هي القضاء على التّفكير»[14].

«لا توجد في الإسلام ((وظيفة)) أشرفُ قدرًا، وأسمى منزلةً، وأرحب أفقًا، وأثقل تبعة، وأوثق عهدًا، وأعظم أجرًا عند الله، من وظيفة العالم الديني، ذلك لأنه وارثٌ لمقام النبوة وآخذٌ بأهم تكاليفها وهو الدّعوة إلى الله وتوجيه خلقه إليه وتزكيتهم وتعليمهم وترويضهم على الحقّ حتّى يفهموه ويقبلوه، ثم يعملوا به ويعملوا له»[15] فالعلم من السبل المؤدية إلى الحقّ والإسلام واليقين بقدرات الله وإعجازه وآياته فيجتهد المتعلّم في عباداته إرضاءً لخالقه، وعليه «قد أدرك زعماء الجمعية أن الصراع مع فرنسا الاستعمارية لن يحسم لصالح الإنسان الجزائري المسلم إلا بالعلم الذي يؤهله لأن يتحدى حضاريا (...) فالعلم عند الجمعية بهذا المعنى لم يكن وعضا ظرفيا أو عملا خيريا اجتماعيا، بل هو المشروع الإصلاحي المرتجى الذي ألجأ رجال الجمعية إلى إنشاء مؤسسات تربوية علمية في أنحاء عديدة من الوطن»[16].

ويخاطِبُ "الإبراهيميُّ" الشعب الجزائري فيخص فئة الشباب بالتحديد: «يا شباب الجزائر! ما قيمة الشّباب؟ وإن رقت أنداؤه، وتجاوبت أصداؤه، وقضيت أوطاره وغلا من بين أطوار العمر مقداره، وتناغت على أفنان الأيام والليالي أطياره (...) ما قيمة ذلك كلّه؟ إذا لم تنفق دقائقه في تحصيل العلم، ونصر الحقيقة، ونشر لغةٍ، ونفع أمّة، وخدمةِ وطنٍ. يا شباب الجزائر، هكذا كونوا ... أو لا تكونوا...»[17] فيسعى من خلال الكلمة إلى إنماء الحس بالمسؤولية تجاه وضع الأمة ومستقبلها وإلى إشراك العنصر الأكثر حيوية في عملية بناء الذات واستعادة المقومات.

أما ما يزيدنا اهتماما بقيمة التعليم عند علماء الجزائر هو أن "الإبراهيمي" بعد خروجه من منفاه «كانت أولى أعماله القيام بتنشيط حركة إنشاء المدارس الحرّة، ونشرها في جميع أنحاء الجزائر، لتصل إلى (300) مدرسة عند نهاية الحرب العالميّة الثانية، بلغ مجموع طلاّبه (60) ألف طالب وطالبة»[18].

وهذه أعدادٌ جيدة جدا بالمقارنة مع ما كانت عليه قبل بداية نشاط الجمعية خاصة فيما يخص الطالبات الجزائريات وهو الموضوع الذي لابد من التطرق إليه حيث إن التقاليد في المجتمع الجزائري إبان فترة الاحتلال جعلت المرأة «قدرية غارقة في الخرافات، ومستسلمة راضية بحكم القضاء عليها »[19]

لكننا الآن ندرك أن الفهم الخاطئ للقوامة وللشرف آن ذاك تسبب في تشويه صورة الدين الإسلامي الذي لا يفرق بين الرجل والمرأة في مراتب الإنسانية، إذ لها الحقّ في ما له الحق فيه من حيث ما لا يخالف تعاليم الشريعة كما أنها مكلفة بما كلّف به وتحاسب عند الله كما يحاسب الرجل.

كذلك لها دور بارز في تعطيل وتخلف حركة تقدم الرجل ورقيه لأنها حلقة تواصل واستمرار اجتماعي ولها دور فعال وحساس في تربية النشء وتغذية العقول اليافعة، وعندما بدأت المرأة مسارها التعليمي في المدارس الفرنسية كانت متواضعة جدا في بدايتها، وليس لأن الجمعية ترفض تعليم النساء بل لأن القائمين على هذه المدارس ليسوا مسلمين، وأغراضهم من هذه العملية التعليمية ليست أبدًا بريئة وشفافة فسياسة الاحتلال الفرنسي لا تفوت فرصةً لإسقاط المجتمع الجزائري إلا وتنتهزها والمرأة فرصة لا تعوّض إذا ما استهدفت.

ويقول "الإبراهيمي": «إنّ المرأة إذا تعطلت عطلت الرجل وإذا تأخرت أخرته ولا سبب لانحطاط المرأة عندنا إلا هذا الظّلال الذي شوّه الدين وقضى على المرأة بالخمول فقضت على الرّجل بالفشل، وكانت نكبة على المسلمين، وما المرأة المسلمة الجزائرية إلا جزءً من المجموعة الإسلامية» [20] وبالتالي ينفي عنها كل الصفات الخرافية التي التصقت بها ويجعلها في مرتبة واحدة مع الرجل بعدها أحد أهم حلقات المجموعة الإنسانية، فهي الأم التي تربي وتسهم في تكوين النشء.

ويقول أيضا «بعد تلك السنوات التي جعلناها حدا لقديم المرأة الجزائرية، جاء طورها الجديد ويبدأ من نحو أربعين سنة، وقد يستقيم للباحث أن يسميه الفجر الكاذب ليوم تعليم المرأة المسلمة الجزائرية، ويصدق هذه التسمية أمران، الأول: أنه بدأ بتعلم اللغة الفرنسية وهي لغة ليست من روحها ولا من تقاليدها، واللغة الأجنبية إن حسنت فإنما تحسن بعد اللغة المتصلة بالروح والتاريخ والمقومات الأصيلة فهي بالنسبة للجزائر ربح، أما رأس المال فهو اللغة العربية، والثاني: أنها بدأت في المدن الحديثة والحضارة، ونعني المدن التي عمرت في عهد الاستعمار الفرنسي مثل سكيكدة وسطيف وسيدي أبي العباس» [21]، وهذين الأمرين يثبتان أن عملية التعليم جاءت بعد مخطّطات مدروسة مسبقًا لتصوير نجاة مزيفة للمرأة من ظلم المجتمع والدين لها، وهذه المرحلة من تاريخ المرأة الجزائرية جعلتها تدخل صراعًا داخليا بين الأنا والآخر لخلق مشكلات ثقافية تهز الهوية الراسخة في ضمائر الشعب الجزائري لتغير

شخصيته وجعلها أكثر مرونة في التعامل مع الآخر الغربي، كما أنّ هذا المخطط يهدف إلى تغيير تصور الذات الجزائرية وتمثلاتها الاجتماعية للعلاقات الكبرى المكونة للرؤيا.

ويرد "الإبراهيميُّ" في كتاباته على هذه المحاولات الفرنسية في إحدى مقالاته:

«وما ظن الاستعمار بجمعية العلماء المسلمين؟ أيظن أنها تمل وتكل فتضعف فتستكين؟ لا والله، ولقد خاب ظنه وطاش سهمه، إنما يكل من كان في ريب من أمره وفي عماية من عمله، أما من كان من أمره على بينة ومن عمله على بصيرة، ومن ربه على عهد فهيهات لما يظنه به الظانون» (22)

تأتي هذه الكلمات في رونق أدبي فني لكنها تحمل تهديدا للعدو دون خوف، فتملئ روح الجزائريين قوة وطاقة متجددة وتزيدهم تمسكا بالقضية.

ننتقل إلى عنصر آخر يتفرع من مقوم التعليم وهيآته ألا وهو العمران وطراز التشييد الذي وقع عليه اختيار العلماء قصدا حين قرروا بناء معاهد ومدارس جزائرية بامتياز تحفظ الخصوصية وتنطق جدرانها بالعروبة، ويقول عنها البشير: «...هذه المدارس شيدت كلها على طراز متقارب الهندسة و المظهر، وهو شيء مقصود أشرنا به ونفذناه (...)، وهو أن تفهم الأجيال الآتية أن هذا الجيل الذي بنى وشيّد، كان جيلا منسجم الذوق، موحد اللمحات الذهنية، متقارب النظرات الفنية، وانتقل من ذلك إلى أنه جيل ينظر إلى الحياة نظرة واحدة، ولا يصمنا باختلاف الذوق واختلاف الذهن، وانطماس النظرة، ومازال اتّحادُ الذوق في أمة دليلا على وحدة تفكيرها، وسداد نظرتها، ومازلنا نرى الطراز الأندلسي موحد التقسيم والتخطيط، فنشهد لأصحابه بوحدة الذوق وانسجام اللمحة والتواطؤ على فنون الحياة، ونستدل بذلك على أشياء أخرى من شؤونهم في غير المعمار»(23).

نستشف هنا استحضار عبقرية روح التراث العربي الأصيل، فهو قادر على تحقيق إعادة هيكلة العلاقة بالمرجعيات وبناء الروح والذوق من خلال صناعة وعي ثقافي بعلاقة الإنسان بالمكان والزمان والأرض والتراب في تحديد تموقعهِ الحضاريّ في الكون.

لأن «كل بناء معماري هو بناء فكري روحي أساسا، لأنه نتاج جملة التفاعلات الفكرية والحضارية والاعتقادية في أمة من الأمم، يتحدد لنا من خلاله دور المكان في حيوات البشر ومستوياتهم

الثقافية، المختلفة، وعليه لا يمكن النظر إلى المكان إلا كمعطيات سيميولوجية ثقافية تتجاوز حضورها الحسي، وتتغلغل في عمق الإنسان» [24] مكونة متغيرا حضاريا رئيسا في الحياة الثقافية.

ج) أفق الدين الإسلامي:

روّاد جمعية العلماء المسلمين لا ينبذون العلوم أو اللغات أو الثقافات غير العربية، بل يرحبون بثقافة التجسير ويفتحون المجال أمام توسيع آفاق المدركات العقلية، لكن اعتراضهم لم يكن إلا على سياسات مدبرة وممنهجةٍ للمساس بالدِّين وضرب عمقه في المجتمع الجزائري، وقد سبق الحديث عن عودة أدباء الجمعية إلى التراث عودة انتقائية تخدم هدفها و« تراثنا جزء من التراث الإنساني، وعلينا أن نستوعب جيدا هذه الحقيقة، وتبعا لذلك لابد لنا من الانفتاح على هذا التراث الإنساني غربيا كان أم شرقيا، وألا نكتفي برد الدين الذي لنا على هذا التراث»،[25] كما ترحب الجمعية بكل مبادرة للإصلاح الفكري وكل « محاولة جديدة للانفتاح على الثقافات الإنسانية الأخرى خارج منطق "التمركز الأوروبي" لاكتشاف إمكانية الاختلاف والتعدد والتنوع، ومن ثم توسيع حدود المفهمة والعقلنة والتأويل»[26].

وقد أرجع البعض زعمهم لهذا الرفض أن الإسلام منغلق على ذاته لا يقبل الانفتاح على غير ركائزه الأولى والتي كانت متعلقة بحقبة زمنية معينة ولم تعد قادرة على احتواء العصر الحالي وتغيرات الراهن، لكن الحقيقة أن موقف الإسلام مغاير لهذا القول تماما إذ «يقر الإسلام بحرية الاختلاف، ولا يحجر على حرية الرأي والإبداع، بل يشجع على ذلك إلى أبعد الحدود، مادام الاختلاف مؤسسا ومنضبطا بالمنهج العلمي، الذي يحترم الحقيقة والموضوعية» [27].

بينما كان الرفض القاطع والدفاع المستميت عن توسيع دائرة هذا الرفض قائما من جل علماء الجمعية لقرار فصل الدولة عن الدين حيث أرادت السلطات الفرنسية أن تظلل الرأي العام بمزاعمها الانفتاحية والسلام المزيف بين الأديان بجعل المساجد والهيآت الإسلامية تحت وصاية وتصرف، في معظم الأحيان، أعيان فرنسيين مسيحيين، وهذا يسيء إلى حسن سير النظام في هذه الهيآت، ولا يمكن لمسيحي أن يتولى إدارتها على النحو المرغوب لأنه غريب عن هذا الدين لن يسمح لأتباعه ومعتنقيه أن يعيدوا الصلة الوجدانية كما كانت عليه قبل الاحتلال.

يقول "البشير الإبراهيمي" في هذا الصدد في نص بعنوان: "إبليس يأمر بالمعروف": «اتخاذ الدين سلما لأغراضها الدنيوية والسياسية، ولو بما يهدم الدين، وقد تلبس دعوى حماية الدين لبوس صدق زائفا، إذا أصدرت من منتسب إليه، ولكن الشناعة التي لا توارى، والفرية التي لا يصدقها غبي ولا ذكي، هي صدورها من أجنبي عنه، مجاهر بعداوته، كدعوى المسيحي حماية الإسلام، أو دعوى المسلم حماية الأنصاب والأزلام»[28].

ونحن نعتقد بهذا الرأي ونؤيده إذ لا تلتقي تجاربهم وخبراتهم في نقطة إيجابية إلا واختلفت المقاصد حتى وإن تشابهت الآليات والمضامين والأساليب، و«الأمة الجزائرية هي قطعة من المجموعة الإسلامية العظمى من جهة الدين، و هي ثلة من المجموعة العربية من حيث اللغة التي هي لسان ذلك الدين والأمم الإسلامية على اختلاف أجناسها ولغاتها ما برحت تفاخر أمم الأرض بذلك الدين وهذا اللسان، وإن كان بعضها ضعيف الحظ فيهما أو في أحدهما»[29] لعوامل مختلفة قد يكون الاحتلال وما ينجر عنه من ويلات أهمها وأثقلها وزنا.

حينما أيقظت جمعية العلماء المسلمين النزعة القومية في نفوس الجزائريين وخاطبتهم بلهجة العتاب على الجفاء والاستكانة لبعدهم عن البحث المستمر عن أنطولوجيا الهوية ومساءلة الراهن الحضاري «بدأت جمعية العلماء أعمالها بالاتصال بالأمة عن طريق الدروس الدينية، والمحاضرات الاجتماعية و التاريخية، مبينة لها حقائقه وما جاء به من العز والكرامة والشرف والمجد والسيادة، وكانت الحملة شديدة، وكان التأثير بليغا»[30] متجسدا في ثلة من المدافعين عن اللغة والدين الذين تتلمذوا على يد جمعية العلماء احتذوا حذوهم فركبوا الصعب واختاروا المشاركة في الميادين السياسية من أجل النصر والحرية واستعادة المجد والشرف برفع راية الشعار الذي ابتدعه "الإبراهيمي" وجعله مبدأ أساسيا في حركته الإصلاحية وهو: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها"، فظهرت حركة الدعوة الإصلاحية على مستوى المعرفة التوحيدية بوصفها « مشروعا منهجيا طموحا يستهدف استعادة "الذاكرة الإنسانية العمودية" بمصطلح طه عبد الرحمان لانتشال الإنسان من هوة النسيان السحيقة. كما تعد أيضا استئنافا شغوفا للبرامج الحضارية الكبرى في تاريخ التغيير الثقافي الإسلامي، ومحاولة كبرى لجعل

المفهومية القرآنية مصدقة ومهيمنة على كافة المفهوميات المنبثقة عبر مسارات التاريخ المعرفي البشري»[31]. ويقول "البشير":

«القرآن هو الذي أصلح النفوس التي انحرفت عن صراط الفطرة وحرر العقول من ربقة التقاليد السخيفة وفتح أمامها ميادين التأمل والتعقل ثم زكى النفوس بالعلم والأعمال الصالحة وزينها بالفضائل والآداب» [32]، ويقول أيضا «ولكن سر القرآن ليس في هذا الحفظ الجاف الذي نحفظه، ولا في هذه التلاوة الشلاء التي نتلوها، وليس من المقاصد التي أنزل لتحقيقها تلاوته على الأموات، ولا اتخاذه مكسبة، ولا الاستشفاء به من الأمراض الجسمانية. وإنما السر كل السر في تدبره وفهمه، وفي إتباعه والتخلق بأخلاقه» [33] أما السر الخفي في الهرولة الدائمة نحو القرآن والسنة والأحاديث هو الاحتماء بالأمان النفسي والاتزان الفكري الذي يبعثه الدين في النفس البشرية ذات الأصل الإلهي لأن «الحاجة للدين وجودية بوصفها حاجة لكينونة الكائن البشري، وأعني بذلك الفقر الذاتي للهوية الوجودية لهذا الكائن، بالمعنى الفلسفي للكينونة والهوية الوجودية، وليس بالمعنى الفيزيائي، أو السيكولوجي، أو السوسيولوجي، أو الأنثروبولوجي. إن الهوية الوجودية للكائن البشري هشة، ضعيفة، خاوية بطبيعتها، لذلك تظل هذه الهوية تعيش قلقا ووحشة واغترابا عن سجنها المادي في هذا العالم» [34] لولا اللجوء إلى الدين والتمسك به تمسكا نابعا من الأعماق اقتناعا بمضامينه قلبيا وعقليا.

وها هو "الإبراهيميّ" يضرب لنا مثلا في التمسك بأوامر الدين الإسلامي وتطبيق قواعده بممارسة شعائره وتعظيم شأنها والحث عليها في قوله:

«أيها المسلمون...

هذا شهر رمضان على الأبواب فأحيوا في نفوسكم جميع معانيه الدينية والاجتماعية وابدأوا لتحقيق ذلك بالاتحاد في صومه والاتحاد في الخروج منه وأظْهروا في هذين اليومين بالمظهر المشرف لدينكم ولجماعتكم، واجتمعوا على السرور بمقدمه وعلى الابتهاج بوداعه، واعلموا أن الاتحاد هيبة، وأن في الاجتماع قوة سطوة فاستجلوا هذه المعاني في مظاهر دينكم، واستغلوا ثمراتها في ظواهر دنياكم»[35].

«حثوا إخوانكم على إقامة الفرائض الدينية والاجتماعية التي أضاعوها كالزكاة والتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر والتواصي بالحق والصبر والمرحمة والتعاون على البر والتقوى والتآلف والتحَّابب» [36].

وبمثل هذه النماذج البشرية يتحقق الإيمان ويعم في المجتمع الإسلامي، ونقصد بالإيمان أنه «إيقاظ لصوت الله في الضمير، وانبعاث لما ينتمي إلى الله في الإنسان (...) يفيض الإيمان على صاحبه طاقة ملهمة، إذ لا يجد نفسه في غربة إلا ويهمس إليه صوت الله، فتستفيق روحه بعد غفوتها، وتمتلئ بعد خوائها، وترتوي بعد ظمأها، ويتجدد وصالها بمن أودعها عنده»[37]. والملاحظ في الشاهدين السابقين للإبراهيمي أنه افتتح خطابه بتوجيهه إلى المسلمين ولم يحصره في "الجزائريين" ليصدح صوته مناديا الأمة الإسلامية قاطبة.

تسهم الدعوة وإعادة إعلاء صوت النداء في تنشيط الذاكرة واسترجاع الماضي وتجديد العهد وعقد النية على الثبات والتمسك في قابل الزمان.

4. خاتمة:

يقود تتبع الحركة الثقافية والفكرية في الجزائر خلال العصر الحديث إلى دراسة المشروع الذي آمنت به جمعية العلماء المسلمين وانتهجته وهذه الدراسة لمنجز أحد أبرز أعلام الجمعية وهو "البشير الإبراهيمي" تسفر عن جملة من النتائج نذكر منها:

- ينبض أدب "الإبراهيمي" حيوية رغم بروز أثر الموروث الأدبي العربي في كل نتاجه لأنه لم يبعد فكره ومغزاه عن مواكبة العصر الذي عاش فيه وأهمَّه أمره.
- يتميز أدب "الإبراهيمي" باللغة الجزلة الرصينة والملكات الممتازة في التصوير وتطويع الصور، وقدرة ذات ثقل معرفي على توظيف آليات البيان العربي.
- تشكل قيمة التعليم ركيزة أساسية في المشروع النهضوي الإصلاحي الذي تبته جمعية العلماء المسلمين وقد تجسدت هذه القيمة بشكل واضح في أدب "الإبراهيمي".
- يعد الدين الإسلامي الرابط الجذري بين الجزائر والمشرق العربي والحبل المتين الذي يشد الجزائريين إلى اللغة العربية.

الهوامش:

(1) – سعيد يقطين، الفكر الأدبي العربي، الفكر الأدبي العربي (البنيات والأنساق)، منشورات الاختلاف، الجزائر، منشورات ضفاف، (بيروت)، ط1، (2014م)، ص170.

(2) – أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ط1، ج5 (1954–1964م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ص211.

(3) – المصدر نفسه، ص211.

(4) – المصدر نفسه، ج5، ص46.

(5) – المصدر نفسه، ج5، ص166.

(6) – المصدر نفسه، ج3، ص186.

(7) – سعيد يقطين، السرد العربي (المفاهيم والتّجليات)، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، دار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2012م، ص47.

(8) – أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص284.

(9) – المصدر نفسه، ج3، ص281.

(10) – عمر أحمد بو قرة، التجربة الشعرية عند أحمد سحنون (بين ثابت الرؤية الإسلامية ومتغيرات الواقع)، ط1، شركة الأصالة للنشر، الجزائر، 2019م، ص151.

(11) – أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص112.

(12) – المصدر نفسه، ص113.

(13) – عبد الملك مرتاض، فنون النّثر الأدبي في الجزائر (1931–1954م)، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، د.ط، 1983م، ص345.

(14) – أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص22.

(15) – المصدر نفسه، ج4، ص109.

(16) – عمر أحمد بوقرة، التجربة الشعرية عند أحمد سحنون، ص50.

(17) – أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص512.

(18) – المصدر نفسه، ص245.

(19) – نزار علوان عبد الله، تعليم المرأة الجزائرية وترقيتها في فكري عبد الحميد ابن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي، مجلّة: دراسات تاريخية، جامعة البصرة، العراق، ع49، ص264.

(20) – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1954م)، دار الغرب الإسلامي،(بيروت)، ط1، 1998م، ص337.

(21) – أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص264.

(22) –المصدر نفسه، ج4، ص260.

(23) – المصدر نفسه، ج2، ص432.

(24) – سليمة مسعودي، جدل السياقات والأنساق (مقاربات نقد ثقافية في السيرة الذاتية والسرد الروائي والعقل الديني)، ط1، دار ميم للنشر، الجزائر، 2019م، ص78.

(25) – سعيد يقطين، السرد العربي، ص51.

(26) – شراف شناف، القراءة المعرفية (رؤية توحيدية)، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2022م، ص23.

(27) – الطيب برغوث، التجديد الحضاري والعمق الإنساني للإنسان، ص197.

(28) – أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص420.

(29) – المصدر نفسه، ج1، 107.

(30) – المصدر نفسه، ج5، ص153.

(31) – شراف شناف، القراءة المعرفية، ص32.

(32) – أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص94.

(33) – المصدر نفسه، ج1، ص160.

(34) –عبد الجبار الرفاعي، الدين والكرامة الإنسانية، ط1، دار التنوير، بغداد، 2021م، ص41.

(35) – أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، ج2، ص163.

(36) – المصدر نفسه، ج2، ص294.

(37) – عبد الجبار الرفاعي، الدين والكرامة الإنسانية، ص13.

6. قائمة المصادر والمراجع:

(1): الكتب:

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1954م)، ج6، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998م.

2- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997م.

3- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5 (1954-1964م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997م.

4- سعيد يقطين، السرد العربي (المفاهيم والتّجليات)، منشورات الاختلاف، الجزائر، دار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2012م.

5- سعيد يقطين، الفكر الأدبي العربي (البنيات والأنساق)، منشورات الاختلاف، الجزائر، منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2014م.

6- سليمة مسعودي، جدل السياقات والأنساق (مقاربات نقد ثقافية في السيرة الذاتية والسرد الروائي والعقل الديني)، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2019م.

7- شراف شناف، القراءة المعرفية (رؤية توحيدية)، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2022م.

8- الطيب برغوثي، التجديد الحضاري والعمق الإنساني للإنسان، دار النعمان، الجزائر، د.ط، 2017م.

9- عبد الجبار الرفاعي، الدين والكرامة الإنسانية، دار التنوير، بغداد، ط1، 2021م.

-10عبد الملك مرتاض، فنون النّثر الأدبي في الجزائر (1931-1954م)، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، د.ط، 1983م.

10- عمر أحمد بو قرة، التجربة الشعرية عند أحمد سحنون (بين ثابت الرؤية الإسلامية ومتغيرات الواقع)، شركة الأصالة للنشر، الجزائر، ط1، 2019م.

2): المجلات:

1- مجلة دراسات تاريخية، جامعة البصرة، العراق، العدد 49.